

القَصَصُ الدِّينِيُّ  
الحلقة الرابعة  
العرب في أوربا

الحَكِيمُ بْنُ الْفَضْلِ

عبد الحميد جودة السحار

١٧



مات الناصر ، فاعتلى الحكم المستنصر بالله سرير  
 الملك ، ثانی يوم وفاة أبيه ، وبعث الكتب إلى البلاد  
 بتمام الأمر له ، ودعا الناس إلى بيعته ، وأول ما أخذ  
 البيعة على صقالبة قصره ، وتكفلوا بأخذها على من  
 وراءهم وتحت أيديهم من طبقته .

وكملت بيعة أهل قصره ، وأمر عظيم دولته  
 جعفر بن عثمان المصحفى ، بالإسراع إليه بأخيه أبى  
 مروان غبيد الله المتخلف ، ليبايعه على الخلافة ،  
 وأرسل عظيمًا آخر للإتيان بشقيقه الثانى . ونفذ  
 غيرهما من وجوه الرجال فى الخيل ، لإتيان غيرهما  
 من الإخوة ، وكانوا يومئذ ثمانية ، فوافى جميعهم



الزَّهْرَاءَ فِي اللَّيْلِ .

وَفِي الصَّبَاحِ ، قَعَدَ الْمُسْتَنْصِرُ بِاللَّهِ عَلَى سَرِيرِ  
الْمَلِكِ ، فِي الْبَهْوِ الْأَوْسَطِ ، مِنْ الْأَبْهَاءِ الْمَذْهَبَةِ  
الْقَبْلِيَّةِ ، الَّتِي فِي السَّطْحِ الْمُرْدِّ ؛ فَدَخَلَ إِخْوَتُهُ  
عَلَيْهِ ، فَكَانُوا أَوَّلَ الْمُبَايَعِينَ ؛ وَأَنْصَتُوا لَصَحِيفَةِ  
الْبَيْعَةِ ، وَالتَّزَمُوا الْأَيْمَانَ الْمَنْصُوصَةَ ، لِكُلِّ مَا انْعَقَدَ  
فِيهَا ، ثُمَّ بَايَعَ بَعْدَهُمُ الْوُزَرَاءَ ، وَأَوْلَادَهُمْ وَإِخْوَتَهُمْ ،  
ثُمَّ أَصْحَابُ الشَّرْطَةِ ، وَطَبَقَاتُ أَهْلِ الْخِدْمَةِ ؛ وَقَعَدَ  
الْإِخْوَةَ وَالْوُزَرَاءَ وَالْوُجُوهَ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ .

وَاصْطَفَى فِي الْمَجْلِسِ أَكْبَرَ الْفَتَيَانِ يَمِينًا وَشِمَالًا ،  
إِلَى آخِرِ الْبَهْوِ ، كُلُّ مَنْهُمْ عَلَى قَدَرِهِ فِي الْمَنْزِلَةِ ،  
عَلَيْهِمُ الظَّهَائِرُ الْبَيْضُ ، شِعَارُ الْحُزْنِ فِي الْأَنْدَلُسِ ،  
فَقَدْ أُعْلِنَ الْحِدَادُ لِمَوْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ ، أَعْظَمِ  
مَنْ حَكَّمَ الْأَنْدَلُسَ .



اصطفَ الفتيانُ الصَّقَالِبَةَ الخُصِيَّانِ ، وقد لَبَسُوا  
 البياضَ ، بأيديهمُ السُّيُوفَ ، يَتَّصِلُ بهم مَن دُونَهُم  
 من طبقاتِ الفتيانِ الصَّقَالِبَةِ ؛ ثُمَّ تَلَاهُمُ الرُّمَاءُ  
 متكَبِّينَ قِسِيَّهِمْ وجِعَابَهُمْ ؛ ثُمَّ وَصَلَتْ صُفُوفُ  
 هؤلاءِ الخُصِيَّانِ الصَّقَالِبَةِ ، وصفوفُ العبيدِ الفُحولِ ،  
 شاكية في الأسلحةِ الرَّائِقَةِ ، والعُدَّةِ الكَامِلَةِ ؛  
 وَقَامَتِ التَّعْبَةُ فِي دَارِ الجُنْدِ : العبيدُ عليهم الجَواشِنُ  
 والأَقْيَةُ البِيضُ ، وعلى رُءُوسِهِمُ البِيضَاتُ  
 الصَّقَلْبِيَّةُ ، وبأيديهمُ التُّرَاسُ المَلُونَةُ ، والأسلحةُ  
 المَزِينَةُ .

وعلى بابِ السُّدَّةِ الأعْظَمِ ، البَوَابُونَ وأَعْوَانُهُمْ ؛  
 ومن خَارِجِ بابِ السُّدَّةِ فُرْسَانُ العَبِيدِ ، إلى بابِ  
 الأَقْبَاءِ ، وَاتَّصَلَ بِهِمْ فُرْسَانُ الحَشَمِ ، وطبقاتُ الجُنْدِ  
 والعَبِيدِ والرُّمَاءُ ، موكِبًا إِثْرَ مَوْكِبِ ، إلى بابِ المَدِينَةِ



الشارع إلى الصحراء .  
وتمت البيعة للحكم ، فأذن للناس بالانصراف ،  
إلا الإخوة والوزراء وأهل الخدمة ، فإنهم مكثوا  
بقصر الزهراء ، ليحتملوا جسد الناصر ، إلى قصر  
قرطبة ، ليقبروه في تربة الخلفاء .

٢

مات الناصر ، فطمع الجلالة في الثغور ، فغزاهم  
الحكم بنفسه ، وفتح سنت استيباني عنوة ،  
واستباحها . ثم عاد إلى قرطبة ، وبعث قائده ومولاه  
غالبًا الناصري ، إلى بلاد جليقية . فانطلقت الجيوش  
الإسلامية إلى مدينة سالم ، الواقعة على رافد من  
روافد نهر طرطوشة . وعلم الجلالة بخروج غالب ،  
فجمعوا له الجموع ، وساروا للقائه ، وما إن التقى



الجمعان ، حتى انهزمَ الجلالقة ، ونصرَ اللهُ غالبًا  
نصرًا مؤزرًا .

رأى أردون ، المتملكُ على طوائف من الأمم  
الجلالقة ، والمنازعُ لابنِ عمِّه حنسو (شانجه) ، الذى  
ارتبطَ بمعاهدةٍ مع الناصر ، نصرَ غالب ، وبلغه  
اعتزامُ الحكمِ على غزوِ بلاده ، فقرَّرَ المسيرَ إلى بابِ  
الحكم ، غيرَ طالبِ إذن ، ولا مُستظهرٍ بعهد .

خرجَ أردونُ فى عشرينَ رجلًا من وجوه  
أصحابه ، وقابلَ غالبًا ، والتمسَ منه أن يذهبَ به  
إلى الحكمِ مولاة ، فسارَ غالبٌ وأردونُ وأصحابه  
إلى قرطبة ، وبلغَ الحكمَ مسيرُهم نحوَه ، فأرسلَ  
كتيبةً من الحشم ، لتلقىَ غالبًا الناصرى .

ونزلَ أردونُ وأصحابه قرطبة ؛ وفى ثانى يومٍ  
نزلَ لهم ، أرسلَ إليهمُ الحكمُ جيشًا عظيمًا كاملَ



التَّعَبَّة ، تحركَ بهم إلى القصر ، فلما بلغ أردونُ باب  
السُّدَّة ، وباب الجنان ، سأل عن مكان قبر الناصر ،  
فأشيرَ إلى ما يُوازي موضِعَه من داخلِ القصرِ من  
الروضة ، فخلعَ قلنسوته ، وخضع نحو مكانِ القبرِ  
ودعا ، ثم رَدَّ قلنسوته إلى رأسه .

بقي أردونُ يومَ الخميسِ والجمعةِ ينتظرُ الإذنَ له  
بالمشولِ بين يدي الحاكم ، وفي يومِ السبتِ عُيِّئَ  
الجيش ، وأقيمَ التَّرتيب ، لاستقبالِ أردون ، فقعدَ  
المُستنصرُ بالله على سرير الملك ، في المجلس الشرقيِّ  
من مجالس السَّطح ؛ وقعدَ الإخوةُ وبنوهم والوزراء ؛  
وجيءَ بأردونَ وقد لبسَ ثوبًا ديباجيًا روميًا أبيض ،  
وعلى رأسه قلنسوةٌ روميَّةٌ ، منظومةٌ بجوهر ، وقد  
حفَّته جماعةٌ من نصارى وجوه الذِّمة بالأندلس ،  
يؤنسونه ويُبصِّرونه ، فيهم وليدُ بن حيزون ، قاضي



النَّصَارَى بِقَرْطُبَةٍ ، وَعَبِيدُ اللَّهِ بْنِ قَاسِمٍ ، مُطْرَانُ  
طَلِيْطْلَةٍ ، وَرَاحُوا يَتَقَدَّمُونَ عَلَى جِيَادِهِمْ .

دَخَلَ أَرْدُونُ بَيْنَ صَفَى الْجُنْدِ ، يُقَلِّبُ الطَّرْفَ فِي  
نَظْمِ الصُّفُوفِ ، وَيُجِيلُ الْفِكْرَ فِي كَثْرَتِهَا ، فَرَأَاهُ  
مَارَأَى . وَصَلَ إِلَى بَابِ الْأَقْبَاءِ ، أَوَّلِ بَابِ قَصْرِ  
الزَّهْرَاءِ ، فَتَرَجَّلَ الْجَمِيعُ . وَتَقَدَّمَ الْمَلِكُ أَرْدُونُ عَلَى  
جَوَادِهِ ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى بَابِ السُّدَّةِ ، ثُمَّ سَارَ عَلَى  
جَوَادِهِ ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى الْبَهْرِ الْأَوْسَطِ مِنَ الْأَبْهَاءِ  
الْقَبَلِيَّةِ ، الَّتِي بَدَارِ الْجُنْدِ ، نَزَلَ عَلَى كُرْسَى مُرْتَفِعٍ ،  
مَكْسُوٍّ الْأَوْصَالِ بِالْفِضَّةِ ، حَيْثُ نَزَلَ قَبْلَهُ عَدُوُّهُ  
وَمُنَاوَأَهُ حَنَسُو (شَانْجَه) ، الْوَافِدُ عَلَى النَّاصِرِ ،  
يُعَاهِدُهُ وَيَطْلُبُ حِمَايَتَهُ وَنَصْرَهُ .



وخرج الإذن لأردون الملك من الحكم المستنصر بالله ، بالدخول عليه ؛ فتقدم يمشى ، وأصحابه يتبعونه ، إلى أن وصل إلى السطح ، فلما قابل المجلس الشرقي الذي فيه الحكم ، وقف وكشف رأسه ، وخلع بُرُئسه ، وبقي حاسرا ، إعظاما لما بان له من الدُّنُوِّ إلى السَّرِير . واستنھض ، فمضى بين الصَّفَّينِ المرتَّبين في ساحة السطح ، إلى أن قطع السطح ، وانتهى إلى باب البهو .

وقابل السَّرِير ، فخرَّ ساجداً سُويعةً ، ثمَّ نهَضَ خطوات وعادَ إلى السُّجود ، ووالى ذلك مراراً ، إلى أن قدِمَ بين يدي الخليفة ، ومالَ إلى يده ، فناوَلَه



إِيَّاهَا ، وَكَرَّ رَاجِعًا مُتَقَهِّقِرًا عَلَى عَقْبَيْهِ ، إِلَى وَسَادِ  
دِيبَاجٍ مُثْقَلٍ بِالذَّهَبِ ، جُعِلَ لَهُ هُنَاكَ ، وَوُضِعَ عَلَى  
قَدْرِ عَشْرَةِ أَذْرُعٍ مِنَ السَّرِيرِ .

جَلَسَ أَرْدُونُ عَلَى الْوِسَادِ ، وَالْبَهْرُ قَدْ عَلَاهُ ؛  
وَوَصَلَ وَلِيدُ بْنُ حَيَّزُونَ ، قَاضِي النَّصَارَى بِقُرْطُبَةِ ،  
فَكَانَ التَّرْجُمانَ عَنِ الْمَلِكِ أَرْدُونُ ذَلِكَ الْيَوْمَ ،  
فَاطْرَقَ الْخَلِيفَةُ الْحَكَمُ عَنْ تَكْلِيمِ أَرْدُونِ وَقْتًا كَيْمَا  
يَهْدَأُ ، ثُمَّ قَالَ الْحَكَمُ :

- لَيْسُ رُكَّ إِقْبَالِكَ ، وَيُغْبِطُكَ تَأْمِيلُكَ ، فَلَدِينَا لَكَ  
عَنْ حُسْنِ رَأْيِنَا ، وَرَحْبِ قَبُولِنَا ، فَوْقَ مَا قَدْ طَلَبْتَهُ .  
فَلَمَّا تُرْجِمَ لَهُ كَلَامُهُ إِيَّاهُ ، تَطَلَّقَ وَجْهَ أَرْدُونِ ،  
وَقَبَّلَ الْبِسَاطَ ، وَقَالَ :

- أَنَا عَبْدُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَحَيْثُ وَضَعَنِي مِنْ  
فَضْلِهِ ، وَعَوَّضَنِي مِنْ خِدْمَتِهِ ، رَجَوْتُ أَنْ أَتَقَدَّمَ فِيهِ



بنيّة صادقة ، ونصيحة خالصة .

فقال له الخليفة :

— أنتَ عندنا بمحلٍّ من يستحقُّ حُسنَ رأينا ،  
ومِئناكَ من تقدّمنا لك ، وتفضّلنا إياك على أهلِ  
مِلَّتِكَ ، ما يُغِطُّكَ ، وتعرّفُ به فضلَ جنوحِكَ  
إلينا ، واستظلالِكَ بظلِّ سلطاننا .

فعادَ أَرْدُونُ إلى السُّجود ، وابتهلَ داعياً وقال :

— إنَّ حنْسو « شانجة » ابنَ عمِّي ، تقدّمَ إلى  
الخليفةِ الماضي مُستَجيراً به مِنِّي ، فكانَ من إعزازه  
إيَّاه ، ما يكونُ من مثله من أعاضِمِ الملوك ، وأكارِمِ  
الخلفاء ، لمن قصَدَهم وأملَهم ، وكانَ قصَدُهُ قصْدَ  
مُضْطَرٍّ ، قد كرهتُه رعيّته ، وأنكرت سِيرَتَه ،  
واختارتنِي لمكانِهِ ، من غيرِ سعيٍّ مِنِّي — عِلِمَ اللَّهُ  
ذلكَ — ولا دعاءٍ إليه . فخلَعْتُهُ وأخرجْتُهُ عن ملكِهِ ،



مضطرباً مضطهداً ، فأنعم عليه - رحمه الله - بأن  
صرفه إلى ملكه ، وقوى سلطانه ، وأعز نصره ،  
ومع ذلك فلم يَقم بفرض النعمة التي أسديت إليه ،  
وقصر في أداء المفروض عليه ، وحقه وحق مولاي  
أمير المؤمنين من بعده .

وظلُّ أردون يتودد ، ويُزكى نفسه ، ويلتمس  
رضا الحكم ، حتى وعده الخليفة بالنصر ، فكرر  
أردون الخضوع ، وأسهب في الشكر ، وقام  
بالانصراف مُقهقراً ، لا يؤلى الخليفة ظهره .

٤

وبعث ملكاً برشْلونة وطركونة ، يسألان تجديد  
الصُلح ، وإقرارهما على ما كانا عليه ؛ وبَعثا  
بهديّة ، وهي عشرون صبيّاً من الخُصيان الصّقاليّة ،



وعشرون قِنطَارًا من صوفِ السَّمُور ، وخمسة قناطرٍ  
من القصدير ، ومائتا سيفٍ إفرنجِيَّة . فتقبَّلَ الحَكَمُ  
الهدِيَّة ، وعَقَدَ لهم على أن يهدِمُوا الحصونَ التي تضرُّ  
بالشُّغُور .

وتمَّ الصُّلْحُ بينَ الحَكَمِ وملوكِ الفِرْنَج ، فسَاءَ ذلك  
أصحابَ الجِهَاد ، وأخذَ قُوَّادَهُ ووزرأُوهُ يُحْثُونَهُ على  
نَقْضِ الصُّلْحِ ، فالتفتَ إليهم ، وقال :  
« وأوفُوا بالعَهْدِ ، إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا » .

وعَكَفَ الحَكَمُ على خِزانَةِ كُتُبِهِ ، يقرأ ما شاءَ له  
شغفُهُ بالعلوم ، وكان ذا غرامٍ بالكتب ، حتَّى آثَرَهَا  
على لَذَاتِ المُلُوكِ ، فجمعَ من الكتبِ أربعةَ آلافِ  
مُجَلَّد ، وكان يستجلبُ المصنِّفاتِ من الأقاليمِ  
والنَّواحِي ، باذلاً فيها ما أمكنَ من الأموال ، حتَّى  
ضابقتُ عنها خِزائِنُهُ .



واصطفى الحكم جعفر بن عثمان المصحفى ،  
فاستوزره ، فكان أذنه التى يسمع بها ، وعينه التى  
يرى بها . واستفحل أمر المصحفى ، فصار الحاكم  
الناهى فى الدولة ، يُصَرِّفُ أمورها ، ويسوس  
رعيتها ، والحكم غارق فى كتبه ، فقد مارس الحكم  
فى زمان أبيه ، صدر ولايته ، فزهد فيه .

وأحب الخليفة جاريته صبيحة (صُبح) ، وكانت  
حسنة الصوت ، فكان يمضى الساعات يُصغى إلى  
صوتها الحنون ، يتجاوب فى أرجاء قصر الزهراء  
بقرطبة . ووضعت له هشاماً ولى عهده ، فرفعها من  
جارية جاءت من البشكنس إلى أميرة قرطبة (١) ، وأم  
ولى العهد ، وصارت تُديرُ أمور الدولة هى  
والمصحفى .

---

(١) اقرأ أميرة قرطبة للمؤلف .



ومَرَضَ الحَكَمُ ، وَلَزِمَ فِرَاشَهُ ، وَكَانَ حِصْنُ  
 فَرَكَنْسِيَتِ فِي قَلْبِ فَرَنْسَا ، قَدْ وَقَعَ فِي أَيْدِي  
 الْعَرَبِ ، مِنْ أَكْثَرِ مِنْ ثَمَانِينَ سَنَةً ، وَكَانَ مَرْكَزَ  
 جَمِيعِ الْعَرَبِ الْمُنْتَشِرِينَ فِي فَرَنْسَا وَشِمَالِيَّ إِيطَالِيَا  
 وَفِي سُوَيْسَرَةِ ، وَقَدْ رَأَى غَلِيوْمُ كُونْتَ بَرُوفَنْسَ ،  
 أَنَّ الْفُرْصَةَ سَاحَتْ لِطَرْدِ الْعَرَبِ مِنْ فَرَنْسَا ، فَاسْتَنْفَرَ  
 أَهْلِي بَرُوفَنْسَ ، وَدُوفِينِي السُّفْلَى ، وَنِيَسَ ، لِقِتَالِ  
 الْعَرَبِ ، فَلَبَّوْا نِدَاءَهُ ، وَاجْتَمَعَ لَهُ جَيْشٌ جَرَّارٌ ،  
 انْطَلَقَ إِلَى فَرَكَنْسِيَتِ ، مَعْقِلِ الْعَرَبِ الْحَصِينِ .

وَعَلِمَ الْعَرَبُ أَنَّ أَهْلِي الْبِلَادِ ضَيَّقُوا عَلَيْهِمْ مِنْ  
 كُلِّ جَانِبٍ ، فَانْزَلُوا مِنْ جِبَاهِهِمْ وَسَارُوا إِلَى  
 « دَارْجَنْمَان » ، وَدَارَتْ مَعْرَكَةٌ رَهِيْبَةٌ بَيْنَ الْعَرَبِ



وجيوش غليوم في « تور تور » ، انهزم فيها العرب ،  
فشار الأهالي عليهم ، وراحوا يقتلون أثرهم ،  
ويقتلون كل من يقع في أيديهم .

وفر بعض الناجين من المسلمين إلى الأندلس ،  
وركب بعضهم البحر ، وذهبوا إلى سردينية ، وكانت  
في يد المعز لدين الله الفاطمي ؛ وكان المعز قابضاً  
على زمام الجزيرة ، قبل أن يتحرك لفتح مصر .

ومات الخليفة الحكم ، وقد ترك ابنه هشاماً ولماً  
يلج الحلم : فتقلد الأمور المنصور بن أبي عامر ،  
وكان آية باهرة في البسالة والإقدام ، وحسن  
التدبير . فعزم على أن يعيد للإسلام رونقه الأول ،  
وأن يثبت الغارات في أطراف بلاد الفرنجة ، وأن  
يحمل الراية الإسلامية إلى بلاد لم تحقق فيها قبل تقلده  
لأمر الأندلس .